أفكار مبعثرة

بقلم عبد الهادي البكار

اعود من بيروت هذا الاسبوع وبي من حب الحياة والاخرين اطنان وأطنان . ان الانسان الفنان ـ أو غير الفنان ـ يصل به تفاعله الشديد بما حوله من ناس وامكنة ومشاكل احيانا ، الى درجة يشعر فيها انه يكاد يتمزق من الضجر والوحدة والفراغ والملل ، ذلك ان الاستمرار على ممارسة العيش في لون واحد ـ سيء او جيد ـ والتعود على استهلاك الحوادث الواقعة ، في الحالة الثابتة التي اعتيد العيش فيها ، انما هو الامر الخالق ذلك الشعور بالسأم القاتل ، المحرق لكل اخضرار . ومن هنا نشأت قيمة الارتحال والسفر بصورة عامة . ومن هنا ايضا نبت نزوع الانسان القاصر عن القيام برحلة ينتقل فيها من ارض الى ارض : الى الحلم والتخيل يمتطيهما في اسفاره البعيدة الى العوالم الضبابية . والهدف الاول من هذا الارتحال ان هو الا التبديل للصور المحيطة ، او تغيير لماهية هذا المحيط .

لقد ابدلت خلال الاسبوع الماضي الصور التي اعتدت ان احيا وهي حولي ، تلك الصور الثابتة : البيت . . شوارع دمشق . . . الاذاعة ـ مكان العمل ، بصور اخرى واقعية ولكنها مشوهة ، فعشت في احد المستشفيات الكبرى الى جانب مريض ما ، سبعة ايام كاملة ، رأيت فيها انسانا يُبتر ساعده ، وفتاة يعالج قلبها مبضع الجراح فينزع شريانا ، ويثبت الجرح المنفتح بخيط دقيق وابرة ، وكهلا شقت جمجمته ، وفتاة صغيرة تقيح دمل في وجهها، فحكته باصبعها ، فأحدث هذا الحك ثغرة فيه قرب المنخر ، تحت العين ، ـ ثغرة هي الى منظر مغارة معتمة رطبة اقرب ـ فجيء بها الى المستشفى ليخلع الجراح من كتفها ومن بطنها قطعا من الجلد ، فيرقع الوجه المشوه الذي كادت معالمه الانسانية ان تضيع .

عشت سبعة ايام الى قرب هذه الصور المريضة ، وحمدت القوة العليا المخيفة ـ من ثم ـ الف الف مرة .

ان الحياة فن . . فن صعب التفاصيل ، دقيق المقومات ، غير ان مبدل الصور المحيطة ـ بين حين وحين ـ يكاد يكون فنانا انجح من غيره في هذا المضمار . لقد تألمت مع المتألمين ، وتعذبت باخلاص مع المعذبين من مرضى الجسد ، وجذب صراخهم وأنينهم من عيني الكثير الكثير من الدموع ، الا انني عدت اليوم الى غرفتي القديمة ، الى صوري العتيقة ، لالفي ان الزهور متفتحة ابدا ، وأن العبير منتشر ابدا ، وان الحياة جميلة حقا ، وأن المحبة هي التي يجب ان تسود لان الزمن قصير مهما طال في الامتداد، ومهما توغل في ظلام البعد .

عدت الى الصديق الذي اساء ، فلم يتحرك في صدري هواء الموجدة او الحقد . . وعدت الى الناس جميعا ، فاقتنعت بكل ما يفعلون ويصنعون بكل احكامهم وتقاليدهم العامة . التقاليد !انها أشياء ظاهرية سطحية ، ومن السهل ان اوافق عليها ، وأن اقتنع بكل هذه النظم المصنوعة الموضوعة . ذلك من اجل سعادة الاخرين ، ومن اجل رضاهم هم ، ومن اجل ان اعزز شعورهم بالسيادة والانتصار . وعرفت انها مهمة الفنان التي تتكشف في : أن عليه ان يؤمن بوجوب ممارسة جميع التجارب ، او اكثرها على الاقل مهما كان نوعها ، ليبرهن ، او ليعرف اولا ان الحياة جميلة حقا بكل ما فيها ، فيبرهن للآخرين فيما بعد ان الجمال كائن موجود في كل الدقائق والزوايا . . . . أن الحياة هي الجمال الكلي الاعلى ، ما دامت العافية قائمة ، والصحة لا يشوبها المرض او التشويه . ذلك حقيقي مهما اختلفت الصفات المادية للفرد ، ومهما كانت صفة هذا الفرد في مجتمعه ، تلك المهمة التي تفرض عليه بشكل طبيعي ان يحقق التناسق الذهني في هذه التجارب جميعها .

عدت الى البيت القديم ، والام والاب والاخ والناس، لأجد ان كل شيء قد ولد مرة أخرى ، ومسحت عليه اليد الخفية بالنعومة والرقة والوضوح ، ولأسمع صياح الاطفال الصغار ـ هذا الصياح الذي كان يزعجني من قبل ـ فأكتشف انه ايضا غناء قوي مطرب ورائع . عدت احمل على كتفي مسؤولية العمل الدائب المخلص . مسؤولية مشاركة المناضلين المخلصين جهادهم في سبيل المحبة الانسانية الشاملة . عدت الى دمشق ، والدار القديمة الفقيرة باللمعان والزهو ، لاعلن لرفاق الالم ، الفنانين الحقيقيين في بلادي ، أن مهمتهم صعبة ، ولكنها لذيذة لانها هي المهمة الاولى . وكثيرون كثيرون اولئك الذين اكتشفوا من قبل أن الجمال العام موجود لدى كل الاشياء ، بين سطور الكتاب، في ثنيات وريقات الزهرة الصغيرة ، في النجوم ، بين اصابع البيان ، حول شرايين الكمان ، وفي

الحركة العامة . وفي النضال الطبيعي من اجل خلق الحياة الافضل . غير ان العقل البشري كان من الضمور بحيث انه لم يكن ليتمكن من المساهمة مع المكتشفين الفنانين الاولين ، الا ان هذا العقل البشري قد تفتح اليوم ، وأصبح من واجب الناس العاديين أن يعترفوا بعبء الواجب الاكبر الذي يؤديه الفنان للحياة ، اي ان عليهم ان يفسحوا له الطريق ليقف في المقدمة ، ويتبوأ العرش الرئيسي . ولكم تمنيت لفان كوخ ان يبعث من جديد ليشعر باللذة العارمة وهو يعاصر العقل البشري يتفتح عن ضموره المرعب ، ولكم تمنيت هذا البعث ايضا لبيتهوفن ومي زياده وغاندي وجبران خليل جبران وبخنسكي وسيد درويش ودوستويفسكي ونيتشه ، الا ان العزاء ،كل العزاء ،في هذه القلة الناهضة من الفنانين الحقيقيين الناشئين من الان فصاعدا .

اقف هنا قليلا ، لاعرض السؤال الكلاسيكي الجاف الذي كثيرا ما يطرحه الناس العاديون ـ وفي عملية الطرح بالذات كفر بالجواب الايجابي ـ : (رسام .. يعني ماذا ؟ فن .. يعني ماذا ؟ فنان . .يعني ماذا ؟)

وان الجواب الصحيح ، هو الغموض الازلي الذي لا يفسر وانما يفهم . غير اننا نستطيع ان نقول في تواضع ، ان الرسام مثلا هو الذي يكتشف ، او يكشف للآخرين ان (القشة) المسكينة المتروكة في ذلة في زاوية ما من زوايا الدار ، فيها من الجمال الكامن ما في باقة الورد . ان فيها روعة اللون وسحره وتأثيره ايضا . وهكذا يغدو في امكان المبتعد عن حقول الورد مثلا او باقاته ، ان يعيش الى جانب الجمال بشكل مستمر .

هنالك لوحتان لفان كوخ تعتبران من اعظم ما انتجته يد الفنان النزق من حيث اللون : (الكرسي الاصفر) و(الحذاء) . ان الناس العاديين الذين كانوا يجلسون على ذلك الكرسي المهترىء وينتعلون مثل ذلك الحذاء البني اللون ، لم يكونوا على علم بالكمية الجمالية التي كان يحتويها كل من هذين الشيئين البسيطين ، حتى اذا ما جاء فان كوخ،كشف الغطاء المنسدل . وفي الفترة الاولى لم يكن فان كوخ ليدرك هذه القوة الجمالية الخارقة الموجودة لدى كل الاشياء في العالم ، الا انه عندما انتقل من اوفير الى لندن ، من صوره القريبة الثابتة ، الى الصور البعيدة ، وبدل ما حوله الى حين ، وذهب ليكتشف (طريق الخلاص) ـ كما يعبر عن ذلك Colen Welson في كتابه (اللامنتمي) ـ فتوصل اخيرا الى ما توصل اليه كيركغارد من قبل : (اما وأني قد نفذت الى قلب الإنسانية فاني لم اجد شيئا في هذا الكاريكاتور الصامت) .. عاد كوخ الى صوره القديمة يلهث شوقا وهو يحمل راية الاكتشاف العظيم : ان العالم الجميل هو الدقائق التي حولي .

سوريا ـ دوما **عبد الهادي البكار**

شجون

انا من أنادي غدا ان كبرت
غدا ان هرمت
وأغلق بابي عليا
انادي ابنتي ام انادي بنيا
وليس لدي سواي
وكان خيالي سخيا
وكان كتابي وفيا
سؤال يدوّي بقلبي
ويبهت في مقلتي
ويظلم روحي انتحار السنين
وتذبل دنيا من الياسمين
على منكبيا
غدا ان كبرت غدا ان هرمت
ورحت اعد السنين
سنين حياتي
واسبح في ذكرياتي
لمحت شبابي بزهو جمالي حزينا شقيا
ولكن برغم الشقاء تراه بكنز الجمال غنيا
اذا ما بكى خلت دمع الربيع يهل سخيا
اذا ما تألم غنى المآسي لحنا سجيا
غدا ان ذبلت وفارق نفسي سحر الجمال
وزهو الشباب
شعرت ببؤس اغترابي
وكان شبابي طلق المحيا
ينور حزني بألف شعاع
ويغمر بؤسي حبا نديا
شبابي واذكر همس النسيم
ولين الحرير
ووهج الثريا
وتسأل في مقلتي الدموع
لماذا أطلت رثاء الشباب
دعيه يمر بغير نحيب
دعيه يمر بغير عتاب
دعيه فما زال هذا الشباب
يرف رفيفا كسحر مذاب
كأن لم تهوم عليه الهموم
كان لم تبادر اليه الصعاب
دعيه ولا تجرحي كبره
ولا تفضحي سره المغلقا
كفاه من الحزن ان يحرقا
كفاه من البؤس ان يشرقا

عزيزة هارون